أثر المناهج الغربية في الترجمة والنقل وتوظيفها في العلوم الإنسانية

The impact of Western approaches to translation and transmission and their employment in the humanities

فتيحة نجادي *

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، (الجزائر)، fatiha_026@yahoo.fr

تاريخ الارسال2023/03/02 تاريخ القبول 2023/03/09 تاريخ النشر2023/03/20

ملخص:

البحث في استعمال وتطور مناهج العلوم التي ترعرعت في بيئة غربيّة، والذّي قامت على إثره مناهج للدراسة والتحليل والتفسير والفهم، كل هذا في البيئة الغربيَّة التي عرفت ازدهاراً معرفيًّا، أمَّا ما نجده في الدراسات العربيَّة فهو حركة الترجمة، والنَّقل والتأثُّر بالآخر، وعادة الضَّعيف أنْ يتأثَّر بالقوي – كما هو معلوم –. وبناءً على هذا، فإنَّه يجدر بنا أنْ نشير إلى أنَّ العلوم الإنسانية ليست كالعلوم الأخرى التّي تحتملُ تطبيق مناهج تكون وليدة بيئة غير البيئة التي ترعرع فيها الفكر العربي، فالعلوم الإنسانية هي علوم خاصة يجب على الباحث العربي أنْ يتوخّى المنهج السليم لمعالجة القضايا، وليس الأخذ المباشر والترجمة والنّقل، فالبيئة غير البيئة، والفكر غير الفكر، والأبعاد جميعها تختلف.

الكلمات المتاحية: المناهج، المناهج الغربية، الترجمة، العلوم الإنسانية.

Abstact:

Research in the use and development of science curricula that originated in a Western environment, and as a result of which curricula for study, analysis, interpretation and understanding were established. Strong - as is known - .Based on this, it is worth pointing out that the humanities are not like other sciences that bear the application of curricula that are the result of an environment other than the environment in which Arab thought was nurtured. And translation and transmission, for the environment is different from the environment, and the thought is not the thought, and the dimensions are all different.

Keywords : Curricula, western curricula, translation, humanities

1. مقدمة:

إنَّ البحث في قضيَّة إشكالية المناهج الحديثة واستعمالها عند العرب هي قضية قديمة جديدة إذْ أنَّ الحديث عنها أخذ نصيبا معتبراً من طرف الباحثين العرب، في شتى التخصصات في العلوم الإنسانية، سواء علم اللغة والأدب أو علم النفس والاجتماع أو الفلسفة أو التاريخ، لما شهده هذا العصر من تقليد وانصياع وانسياق وراء التنظير الغربي، الذّي وصل إلى العلوم الإنسانية العربيَّة عن طريق النقل والتَّرجمة والتأثر بالآخر، والذي كان له حظٌّ

* المؤلف المرسل:

من الإبداع والخلق والقوة والرِّيادة في الميادين العلمية والحضاريَّة جمعاء، والذي وصل إلى العالم العربي في وقت كانت الحاجة إليه ملحة، إذْ على إثر ما شهدته الثقافة العربيَّة والحركة الإبداعية من ركود وجمود في الفترة التي سبقت عصر الانبهار والتأثر والتبعيَّة، صارت هذه التبعيَّة في شكلها الخارجي أهون من التقَّاعس والانغلاق، وإعلان التأخُّر والفشل، فقد كانت حملات الترجمة والنَّقل للعلوم التي شهدها العالم العربي والتي كانت ترتدي رداء محاولة التحضُّر من جهة والتأثر من جهة أخرى إضافة إلى الضرورة الملحة لها، تحاول أنْ تلحق بالركب الحضاري الذي انبنى في حقيقة الأمر في حال نشوء الحضارات السابقة على هذه الحملة الثقافية التي لا بدَّ منها – وهي حملة النقل والترجمة– فما نجده عند الغربيين في عصر نهضتهم أنَّهم اعتمدوا على هذا العلم الذي أخذوا أصوله من الحضارات الأخرى عن طريق النَّقل والتَّرجمة والذي كان معظمه من حضارة العرب، وكان هذا السبب حسب رأي الباحثين أحد الأسباب الكبرى للقفزة الحضاريَّة التّي شهدتها أوربا في جوانب الفكر، والعلم، واستغلال ذلك في تطوير مجالاتها المعرفية.

وكما لا يخفى على أي دارس لموضوع التَّرجمة فإنَّه يجده حاملا لجانبين اثنين، السلبي والإيجابي الذي ينقل المعلومة ويسهل فهمها ونقلها واستغلالها لأطراف أخرى لا تحسن هذه اللُّغة فيكون المترجم خير دالٍ للبقيَّة، أما جانبها السلبي فيتمثل فيما يخصُّ علم الترجمة من مآخذ حين لا تستطيع الترجمة أنْ تفي بالأمانة العلمية للنصّ إذْ أنّها مهما كانت صحيحة كانت تتميز بالخيانة كما يذكر ذلك غير قليل من متخصصي هذا المجال، لأنَّها لا تستطيع حمل فكر الإنسان الذي تُرجم عنه، بل لغته فقط، والأدهى والأمر في قضيتنا هذه والتي ننقاش من خلالها الإشكالية التي نجمت عن النّقل والترجمة في التأثر بالمناهج الغربية وما يترتب عن ذلك حين استعمالها كما هي من غير تكييف مع واقعنا قبل لغتنا، إذْ أنَّ الطرفين في الموضوع سيان في كمّ القيمة إذْ أنَّ المآخذ لم تكن على أخذ المنهج كما هو بل حتى فيما نتج عن ذلك آناء الترجمة ممَّا عانت منه اللّغة في تعدد الترجمات، وفي محاولة توحيدها.

إنَّنا إذا أردنا أنْ نناقش قضيَّة المناهج الغربية في مجال البحث في العلوم الإنسانية عند المسلمين تنفتحُ لدينا العديد من الإشكاليات التي يجب أن لا يفوتنا نقاشها للوقوف على أهم النِّقاط التي يجب أنْ نراعيها لمحاولة إقرار بعض الآراء التي تخدم البحث العربي عامة والبحث عند المسلمين بصفة خاصَّة، إذْ يجب أنْ ننطلق من التفكير في عدّة قضايا إذْ خصصنا مجالاً واحدًا، فيجب تكاتف الجهود من جوانب عدَّة، فإن تكلمنّا عن المناهج في اللّغة والأدب كان علينا أولا أن نطرح إشكالات اللّغة العربية وما تعانيه من وراء الترجمات المتعددة للمصطلح الواحد، وما عانته اللّغة من جمود كان يحتاج لكثير من الجهد في هذا المجال فلم يكن العالم العربي مؤهلا بتقعيد

قوي من جوانب متعددة تخص هذا المجال للتطور ولم ينتبه لنتائج تلك الترجمات والنُّقول إلاَّ بعد فترة من التَّرجمة إذْ صار لزامًا عليه أنْ يفكِّر في تطوير اللُّغة العربية والتي هي لغة راقية في أصلها إلاَّ أنَّها تحتاج إلى تكاتف الجهود من أجل الوصول بها إلى لغة تحتوي الآخر، لأنَّها في الأصل قادرة على ذلك لما لها خاصيات وميزات، إلا أنَّ عامل الجهد الفردي والجماعي المخلص هو الذّي لا بدَّ أنْ يتوفَّر من أجل الوصول إلى الرَّكب.

الحديث عن التَّرجمة والنَّقل يأخذ مآخذ متعددة عبر حملات التَّرجمة التي يشهدها العالم العربي في مختلف تخصصاته، هذا من جهة اللغة كأداة، أمَّا إذا تحدثنا عن المناهج، فإنَّنا نقول أنَّها جانب آخر للموضوع لا ينفصل عن جانبه الأول والذي ينبني على اللغة وما يترتب عنها من إشكالات في الترجمة والنقل، أمَّا المنهج فهو طريق الاستعمال والذّي اختاره الباحث العربي منقولاً بحذافيره وأراد أنْ يطبقه على لغة غير اللغة التي ولد فيها، فوقع في حفرة اللاّهويَّة والتَّقليد الأعمى الذّي ضيع مرحلة أخرى من عمر البحث الرصين الأصيل.

فمحاولة البلاد العربيَّة الوصول بالركب أخذ مساراً غير المسار الصحيح إذْ كان لا بدَّ من النظر في كون هوية اللغة قابلة لاحتواء أولا، والأخذ بعين الاعتبار الثقافات المختلفة التي هي وليدة بيئات ومجتمعات مختلفة، فمعايير درسها وفهمها يختلف لأنَّ اللغة وعامل المجتمع والبيئة هي عوامل كلُّها كفيلة بأنْ تكون دوافع خلاَّقة، ناهيك عمَّا يحمله الفكر العربي الذّي تميز بأبعاد فكرية ودينية تميز ثقافته الإسلامية فهذا دافع آخر للتميُّز.

2.إشكالية النَّقل والترجمة للمناهج العربية في العلوم الإنسانية:

إنَّ محاولة سبر أغوار قضيَّة التَّرجمة وما تحويه من إشكالات تفرض تضافر جهود المتخصصين لتخطي عقبة المآخذ الناتجة عنها، إذْ لا يكون هذا إلاّ بتأصيل فكري للغتنا قبل كل شيء لأنَّ موضوع الترجمة في حد ذاته ينبغي على عديد القضايا التي لا بدَّ أنْ تُعالج قبل الأخذ في أي بحث من البحوث باختلاف التخصص لأنّ اللغة هي وعاء الفكر ولأنَّ « أدبيات الموضوع تتفق على أنَّ لحركة النَّقل والترجمة نتائجها الحسنة والسيئة (الايجابية والسلبية)، التي ينبغي أنْ توضع في مكانها اللاَّئق بها عند تقويم هذه الحركة، وتقدمها، دون إفراط أو تفريط، وهي مثل غيرها من الحركات الحضارية ذات وجهين، لا يسلمُ منها، الوجه الحسن الذي من أجله كان الإقبال عليها والوجه السيئ الذي يدخل في مفهوم الضَّرر، أو الشرّ الذي لا بدَّ منه، ما دام ذلك كلّه من صنع البشر»[1] وهنا كان لزاما على المترجم أنْ يكون صاحب الدَّور في تخفيف هذا الضَّرر لأنَّه يريد البحث عن المعلومة الجديدة التي هي ملك للآخر فعليه أنْ يكون كفأً لاستغلال هذه المعلومة، محافظاً على جوانب متعددة في أصوله العلمية حتى لا يضلَّ وراء قشور ما تحمله الترجمة التي هي في حدّ ذاتها تحتاج إلى تأصيل وإعادة نظر في الاستعمال والنقل إلى لغة ثرية وغنيَّة في أصلها في عصر الحوسبة و الرقمية، والذي أثَّر افتقاده بشكل مباشر على مكانة اللغة العربيَّة

وسط لغات العالم الآخر في الوسط التقني على وجه الخصوص، ورغم ما اكتنفه العالـم العربي من « تأثر حاصل بين الحضارتين العربيَّة والغربية من زمان بعيد إلاَّ أنَّ معرفة ذلك تحتاج إلى أنْ يتفرَّغ لها وينكبَّ على دراسة هذا التأثير كل من يهتم بذلك، ويجدرُ بنا أنْ نقول بأنَّ الكثير من المفاهيم اللُّغوية تحتاج إلى أنْ ينظر فيها بجّد وموضوعيَّة ولاسيَّما تلك التي لا تزال غامضة عند الكثير من الباحثين»[2]، وأحد أسباب هذا الغموض هو النّقل والترجمة، والتداول بغير فهم دقيق لمحضن الفكرة التي يحملها مصطلح مترجم في أصله، كما أنَّ الانبهار بالجديد أكثر هذه المشاكل حدّة.

والحديث عن عواقب الترجمة والنقل يجر الباحث بأنْ ينظر بعين التأصيل دائماً للفكرة التي مآلها قالب لغوي حتماً فمشكل « الإقحام للمفاهيم غير اللُّغوية في الدراسة اللُّغوية كان غير خطير إذْ كانت تستعمل فيه المصطلحات كما وضعت على أصلها، والخطر بل الطامة الكبرى هو اختفاء المفهوم الأصيل مع بقاء اللّفظ نفسه، واستبداله بمفهوم غريب عن النظرية الأصلية – نحن لا نريد بالأصيل هنا القديم بالضرورة بل الشيء المبدع غير المقتبس»[3] وهذا من المآخذ التي تؤخذ على الأمم التي تأخذ العلم عن طريق الترجمة وتكتفي بها كنقل لثقافة الآخر، دون أنْ تضعها في قالب فكري يناسب خصوصيّتها العربيَّة والإسلاميَّة خاصة وأنَّها تأخذ من فكر معادٍ لها.

إنَّ تبني أفكار الآخر والذي نراه مركز قوّة وتحضُر ونرى أنفسنا دائما منساقين خلفه لهو أحد الأسباب التي جرَّت بالفكر العربي لمواصلة هذه التبعيَّة العمياء دون التفطُّن لها، وإنْ كان الوعي قائمًا فالأمر يحتاج إلى جهد ينبني على تغيّر قاعدي، فعدم النَّظر والتبني« لما جاءنا من الغرب من الأقوال والمذاهب اللُّغوية بدعوى أنَّ هذه الأقوال هي آخر ما توصَّل إليه العلم الحديث وأنَّ الباحثين العرب لم يبلغوا بعد – لقلتهم وقرب عهدهم بالبحث– مستوى الاجتهاد، فإنَّ الأفكار التي تصلنا من الغرب في اللغة وظواهرها هي وليدة هذا العصر ، ثمَّ هي من جنس الأفكار التي تخصُ علوم الفيزياء والكيمياء والأحياء، وغيرهما من العلوم التجريبية التي تقدمت في أيامنا التقدّم المعروف»[4] والذي أخذ نصيبه من الترجمات والتّي صارت تعجُ بالفوضى وتعدد الأسماء للمسمَّى من غير توحيد ولا تأصيل، بالإضافة إلى فكرة الاعتقاد بصحَّة المفاهيم وأصالتها « وأنَّ جميع ما تصوره هي حقائق علمية مسلمة من قبل جميع العلماء الغربيين»[5]، لذا كان على الباحث أن يتحرى ويتأنَّ قبل الأخذ بالشيء واعتباره قاعدة « فكم من نظرية كاد يجمع على صحتّها العلماء لعمقها، ودقَّتها قد احتاجت بعد الاختبار في واقع الأحداث إلى أنْ يُعاَدَ النَّظر فيها، لا في جملتها، بل في بعض جوانبها، وإلاَّ ما كانت نظرية علمية حقيقية بل مجموع آراء لبعض المشرعين في الحكم، وعلى العكس من ذلك فإنَّ الانجازات لا يمكن أنْ تتم إلاّ إذا اعتمدت

على مجموعة متماسكة من المبادئ العلميَّة فتستحي مادَّتها ومحتواها ممَّا يثبته العلم على ممر الأجيال»[6]، ويحتاج تأصيل هذا إلى تكاتف جهود المتخصصين من أجل الوصول إلى فكرة تتكامل فيها وجهات النَّظر.

إنَّ الحديث عن تأصيل فكر عربي يحيا بمناهج علميَّة من أصله لهو أمر مكلِّف لعقود من الزَّمن ولتضحيَّة أجيال عالمة في ميادين المعرفة وعلى رأسها اللُّغة العربية والتي هي مردُّ هذه الإشكالات الناجمة عن التبعية الفكريَّة الحاصلة بين المؤثر والمتأثر وهذا ما يدعونا إلى النَّظر في إشكالية « إذا كان مصيرُ اللُّغة يتبع مصير متكلميها أفلا تختلف اللُّغاتُ بعضها عن بعض من حيث المقدرة على البيان وتشخيص المعنى ونقله حيًّا إلى الأذهان»[7]، ويجمل بنا أنْ نقف وقفة تفكرُّ وتمعُّن في القول بأن النقل الحي للأذهان يستدعي منَّا الإلمام بالفكرة والإحاطة بما يدور حول هذا المجال ككل من أجل النهوض بالمعنى الحقيقي الذي تحمله أفكار لغةٍ ما.

لكن الإشكال الذي يواجهنا الآن هو استعمالنا للُّغة العربيَّة في نقل فكر الآخر –المترجم– هذا من جهة ومن جهة أخرى هو الجمود الذي تعانيه اللّغة العربيَّة وسط هذا الزَّخم المعرفي، والذي تقف اللُّغة العربيَّة تنتظر من أهلها دفعًا لمواكبة الظروف الرَّاهنة « فالمفكر الألماني هوستون شامبرلين يقول: لو بقي "كانط" على لغة أجداده الإنجليز ماكان بلغ ما بلغ من شأو في الفلسفة، وهو يستعمل اللُّغة الألمانيَّة، وإذا كانت شعوب أوربا قد اتخذت اللُّغة اللاّتينية لغة أساسيَّة في تعليم الناشئة، فإنَّ الاختبار لم يكن بتأثير الذكريات التاريخية – ذكريات روما القديمة–»[8]، فاللغات هي الأخرى رغم أصالة قواعدها فيجب أنْ نخضعها للتجديد الحضاري الحاصل حتى تستطيع أنْ تفي بأغراض الحاضر، وما نعيشه من تجاذبات علمية وفكرية في وقتنا الراهن فالعلوم تتدافع والنظريات في زخم، وموضة الجديد تتسارع « كمثل أهل الكهف عندما استيقظنا من سباتنا، سبات انزوت فيه أجيالنا عن سير التاريخ عصوراً مديدة، وبدت مظاهر حياتنا باليَّة، عرفنا وتقاليدنا، مؤسساتنا الاجتماعية والاقتصادية، حتى قوالب فكرنا عملنا، وكأنَّ تراثنا قوقعة تصدعت وتداعت لدى اصطدامها المفاجئ بموجة المدنيَّة الحديثة»[9]، وهذا ما يجب النهوض به من أجل إقامة فكر متجدد مواكب لهذه المدنيَّة بفكر تحمله اللّغة الأصل التي هي منبع تفكر هذه الأمَّة، فالفكر المستورد يجب أنْ يؤصَّلَ له، وأنْ يعاد النَّظر فيه ووضعه في قالب يتماشى وعربية الإنسان العربي ومعتقده الإسلامي الذي هو أساس بنائه الفكري الذي غيَّبته النُّقول واكتفى بعلمانية علميّة.

إنَّنا لا نشك أبدًا في معرض حديثنا عن اللُّغة العربيَّة وإلزامية تطويرها بانتقاص فيها في حدِّ ذاتها، بل إنّنا نريد لفت الانتباه لما يجب أنْ يجدد في اللُّغة العربيَّة، حتى تتماشى مع هذه الحداثة « فعدم الإتيان بأي ابتكار فهذا لا يعني أن الإنسان مجبر على ابتكار جميع ما عنده، هيهات، فإنَّ هذا يستحيل كما يستحيل أنْ يعيش

الإنسان بالاعتماد على ما يصنعه هو وحده أو يرقى به العلم بدون أنْ يراعي ما ابتكره الآخرون، والعلم بهذا الاعتبار هو أحوج الأشياء إلى التفاعل والتداخل والأخذ بما يأتي به الآخرون»[10]، لكن في حدود الاحتفاظ بالهويَّة ومعالمها التي تنبني في أساسها على اللُّغة.

إنَّ معالم اللّغة العربيَّة في غنىً عن الأدلة والبراهين التي توضح كفاءتها ومكانتها على « مقدرة اللسان العربي على البيان، فقد استرعت انتباه كل من أولى عنايته دراسة لغة الضَّاد»[11]، التي لا يسعنا التدليل على تمكُّنها من تحمل ما هو منتظر منها فخصائصها تدفع بها لأن ترقى إلى صف المرتبة الأولى فى العالم، بناءً على مؤهلاتها المنطقية والعلميَّة في أصلها وبنائها، مما تفتقر إليه اللُّغات التي تتصدَّر العالميَّة اليوم ومن هذه الخصائص كثرة المسميَّات للمسمى الواحد وجمال الصوت الذي يضيف لها تميّزا، كما أنَّها تستطيع أنْ تنقل المعاني بدقة أكثر وإيجاز أتمّ، كما تمتاز بما ليس له ضرب من اليُسر في استعمال المجاز، وما فيها من الكنايات والمجازات والاستعارات يجعلها متميزة عن باقي اللّغات، ناهيك عن خاصيَّة الاشتقاق، ولهذه الأسباب كلُّها فالترجمة منها وإليها تكادُ تكون مستحيلة [12]، فكيف لنا أن نقبل مناهج ككل؟

3.إشكالية توظيف المناهج الغربية في الثقافة العربية:

إنّ النَّظر في البحث الحديث بمختلف تخصصاته ومجالاته صار يتسم بهويّة الازدواجية الفكرية أحيانا وبتمظهر الانسلاخ للحقيقة أحياناً أخرى، وبالرّفض لهذا الواقع كذلك، ...

فقد وجد الإنسان العربي نفسه والباحث على الخصوص صراعا مع ذاته، يفكر بمنطق لا يفي بجميع حاجاته وقد يضطر للتخلي عن بعض قناعاته في الكثير من البحوث التي تفرض عليه أنْ يخضع لمناهج معيّنة تبقى هي الأخرى قاصرة على إكمال وجهة نظر أو تفرض عليه أنْ يلتزم منهجاً غير الذي تفرضه عليه طبيعته فيجد نفسه مزدوج الفكر، يحيا حياة عاميَّة بمنهج عربي إسلامي ويحي حياة علميّة بمنهج علمي تبعي يبقى قاصراً على أداء أبعاده كلّها لأنّه لا ينبع من الذّات أوّلا ولا من البيئة ثانياً ومن لا الثقافة ثالثاً.

إن مرجعية ثلاثية الذات والبيئة والثقافة كلها فكرة واحدة وهي اللّغة التّي تعبّر عن ذاتها، فهل هي قادرة على تبني هذه الأفكار المستوردة بالذات؟ هل تستطيع احتواء هذه المناهج كما جاءت معالمها عند أصحابها وأهلها العاملين بها؟

إنّ إشكالية المناهج هي وليدة إشكالياتنا العظمى والتّي تمثل في عدم خدمتنا للغة العربيّة بخلق مناهج وليدة الفكر والبيئة، وهذا وليد ظروف اجتماعية وسياسية أدّت بضعف استهلاك ثقافة الآخر مردّه إلى النّقل الذّي لم يجد حاجته الكافية من اللّغات الأخرى، إلى اللّغة العربيّة، إذْ نؤكد مرّة أخرى بأنّ هذا غير راجع لطبيعة

اللغة العربيّة وأصالتها وإنّ المقصود به هو عدم استعمالها بلمسات تواكب المطلوب وجعلها تتماشى والظروف الرّاهنة، وقصور الترجمة مرده عبر الزمن .

وإننا لنجد« التأثير الحضاري وخاصة الثقافي منه هو ظاهرة طبيعية نشأت مع نشوء الحضارات المتتالية وبحكم اتصال الشعوب منذ أقدم العصور في أشكال متنوعة سلميّة وغير سلميّة، والتأثير المتبادل بين الثقافات الأجنبيّة والثقافة العربيّة قد حصل من أوّل وهلة في الطرف العربي من العاهلية الإسلاميّة بين أوربا وصقلية والأندلس خاصَّة»[13]، والتاريخ لا يعيب على أي حضارة أنْ تؤثر وتتأثر فهذه سنّة من سنن الخلق حريّ بالإنسان أنْ يستغلها الاستغلال النّاجع من أجل الوصول إلى المبتغى، وإلاّ ذاب في الآخر، وهذا مصير الشعوب التّابعة.

إنّ المشكلة التّي وصلنا إلى تحليلها في إطار البحث في قضيّة المناهج نصلُ بها إلى مردّين اثنين الأوّل ضعف استعمال اللّغة الناتج عن النّقل والترجمة التي هي في حدّ ذاتها علم قاصر على أداء الحقائق كما هي، أمّا الثاني فهو: التبعيّة النفسيّة واللّهف وراء العنصر القوي وتمثل التجديد من خلاله .

فالأصل في الأمر هو الاستغلال الأمثل لأمر النّقل والترجمة للعلوم من حيث هي فكر وإبداع وعلم دقيق في الوقت نفسه، وصبّها في قالب لغوي يحمل فكراً يمثل هوية الباحث العربي « فأصل الأصول عندنا هو الاستغلال المطلق للفكر، وعدم الخضوع لنظرة الغير والامتناع عن التمسّك بعقيدة سابقة غير الأصول العقليّة والعلميّة، المجمع على صحّتها في كل زمان وفي كل مكان، وهذا الخضوع هو التقليد ليس إلاّ، وهو سلوك الجاهل أو الشّبيه بالمثقف الذّي لا يقدرُ على الاجتهاد»[14]، وهذا ما وقع فيه البحث العربي في تقليده لمناهج البحث والتفكير التّي تنبع في أصلها من الذّات، غير أنّ الذي وقع في فخّه الباحث العربي هو الانبهار والتأثر والتبعيّة وهذا « نوع من التقليد قد يخفى على الكثير، وهو أبغض أشكاله، فقد ينخدعُ الباحث بالنظريات الطارئة – وهذا كانَ في القديم، ومازال في عصرنا هذا مستفحلا- لاستهتار الناس وانبهارهم بها مثل الموضة لا يطول هذا الولوع بها حتّى يزول»[15]، ومبدأ زوالها عدم نبوعها من الذات أوّلاً، والانبهار والتقليد ثانياً، والبحث عن البديل الذي يرضي الذات ثالثاً. فكل هذه العوامل تجعل المتبني لأفكار الآخر لا يجدُ ملاذه في فكره ، ولا في مناهجه.

إنَّ الحديث عن إشكالية المناهج والتي لا يخلو فرع من العلوم الإنسانيّة إلاّ وبنى طرقه على مناهج معّينة لا بدّ من توفرها من أجل الحصول على المبتغى من حيث العطاء أو المردود وكلاهما ضروري، فإنّ العلوم الإنسانية تعاني الآن تحت وطأة التّقليد الذّي صارت تئن من خلاله الهوية الفكرية العربية ، النابعة من البيئة التّي تختلف جذرياً عن البيئة الغربيّة ومتطلباتها تحت وطأة محاولة إيجاد الحلول البديلة في شتى العلوم الإنسانيّة والذّي يبتغي

جهوداً تأسيسيّة تنبثق عن أصلين ثابتين: أوّلهما إعادة التفكير في تأصيل يحمل الهويّة العربية بكامل جورها ومقوماتها بما تفرضه من المكونات تساهم في نفض الغبار عن الفكر العربي ولا حرج في استفادته من الحضارات الأخرى والاحتكاك بها والأخذ منها بما يثبت به وجوده، إلاّ أنّه عليه أن يتعامل بحذرٍ ويتوخى العقلانيّة في ذلك حتّى يصل إلى المبتغى ، أمّا ثاني الأصلين فيتمثل في إعادة الهويّة الحقيقية للوعاء الذي يحمل هذا الفكر لحوسبة اللُّغة ورقمنتها وجعلها قادرة على مواكبة المتطلبات حتّى لا نشعر بالقصور أوّلا، ومن أجل تحقيق الغرض ثانياً، وفي هذا المقام نستشهد بقول محمد عابد الجابري في كتابه تكوين العقل العربي حين يرى« أنّ نقد العقل جزء أساسي وأولي من كل مشروع للنهضة، ولكن نهضتنا العربيّة الحديثة جرتْ فيها الأمور على غير هذا المجرى، ولعل ذلك من أهم عوامل تعثرها المستمر إلى الآن، وهل يمكن بناء نهضة بعقل غير ناهض، عقل لم يقم بمراجعة شاملة لآلياته ومفاهيمه وتصوراته وراؤه»[16]، هذا؛ ويرى كذلك أننا « لا نعاني فقط من غياب محاولات رائدة وأخرى متابعة ومدققة، بل نعاني وبدرجة أكثر من أثار هذا الغياب وانعكاساته على الموضوع ذاته»[17]، ويضيف قائلا: «لقد تم خلال المائة سنة الماضية تكريس تصورات وآراء ونظريات حول الثقافة العربيّة بمختلف فروعها ممّا رسم قراءات معينة لتاريخ هذه الثقافة، قراءات استشراقية أو سلفية أو قوميّة أو يسراوية توجّهها نماذج سابقة، أو شواغل إيديولوجية ظرفية جامعة ممّا جعلها لا تهتم إلاّ بما تريد أنْ تكتشفه أو تبرهن عليه»[18]، وهذا ملخص عوامل الضُّعف والتبعيَّة والتّراجع، ومصّب نتائج التقليد والنقل وتطبيق المناهج التّي ولدت في رحم زرعت فيه غير رحمها الأصلي.

وقد حدّد محمد عابد الجابري المسعى الذي يجب أنْ يحتذي به العربي بقوله :«إنّ عملية النقد المطلوبة أو على الأقل كما نريدها أنْ تكون تتطلّب التحرّرُ من أسار القراءات السائدة واستئناف النّظر في معطيات الثّقافة العربيّة الإسلامية بمختلف فروعها، دون *التقيد بوجهات* النّظر السائدة»[19]، ولهذا الغرض يجب النُّهوض بالعمل الجديّ الذي يستلزم التكاتف بين جميع التخصصات وأهم عامل في ذلك هو الاعتماد على اللّغة العربيّة كقاعدة للتفكير كما ينبغي على أساسين آخرين هما:« استئناف النّظر في تاريخ الثقافة العربيّة الإسلامية من جهة أولى، وبدء النّظر في كيان العقل العربي وآلياته من جهةٍ ثانية[20]»، وهذه العوامل أساسيّة في بناء فكر عربي أصيل مستقل المناهج التابعة من أصالته إذ أننا نجد ابن خلدون في مقدمته يأخذ بعين الاعتبار العلاقة الوطيدة بين المجتمع والتاريخ، واللّغة والمجتمع، واللّغة والتاريخ، وربط هذه الأركان بضرورة معرفة الشريعة الإسلامية لأن مأخذ الأحكام الشرعيّة كلّها من الكتاب والسّنة بلغة عربيّة[21]، ومرّد كل هذا هو التّكامل الذّي تنبني عليه الثقافة العربية في كنف الدين الإسلامي، وانطلاقاً من هذا فإن علوم العربيّة مترابطة فيما بينها ومتكاملة ويشبه الجابري هذا

بقوله أن« فروع هذه الثقافة "نحو، فقه، كلام، بلاغة، تصوف، فلسفة،..." كغرف في قصر واحد، متصلة مترابطة، يقود بعضها إلى بعض عبر أبواب، ونوافذ... وليس كخيام منعزلة مستقلة منصوبة في ساحة غير ذات سور ولا سياج، كما هو حال النظرة السائدة»[22]، ويلمس الجروح التي عانت وتعاني منها الأمة العربية بقوله:«أية ثقافة هي في جوهرها عملية سياسيّة، فإنّ الثقافة العربيّة بالذّات لم تكن في يوم من الأيام مستقلة ولا متعاليّة عن الصراعات السياسيّة والاجتماعية، بل لقد كانت باستمرار الساحة الرئيسيّة التّي تجرى فيها هذه الصراعات، إنّ النهضة الثقافية كانت النقطة الأولى، وأحياناً الوحيدة المسجلة على جدول أعمال كل حركة سياسية أو دينيّة بل كل قوة اجتماعية تطمح إلى السيطرة السياسية أو تريد الحفاظ عليها»[23]، وهذا ما صعب التخلصُ منه.

4. خاتمة:

وفي الأخير نخلص إلى عديد الملاحظات التّي تنبني عليها الإشكالية التّي عرضناها في قضية المناهج المعرفيّة وإشكاليّاتها في العلوم الإنسانيّة عامّةً ومردّها إلى عوامل أساسيّة لابدّ من معالجتها للتخلصُ من هذه الأزمة، وأوّل هذه الحلول: إعادة اللّغة العربيّة إلى الرتبة الأولى فعليّاً بتفعيل استعمالها عن طريق الحوسبة والرقمنة ليسهل بعد ذلك التعامل مع الفكر العربي عامة والنُصوص المترجمة خاصّة، كما يقول في هذا السياق العلامة عبد الرحمن الحاج صالح « وللذخيرة العربيّة المحسوبة فوائد عديدة من الجوانب الثقافية واللّغوية والتربوية والعلمية من ذلك، تمكين أي باحث أو طالب أو تلميذ أو مواطن من أنْ يتحصّل وفي وقت وجيز على المعلومات التي يحتاجها في أبحاثه ومشاريع اختصاصه»[24].

كما أنّه من الواجب على الإنسان العربي أنْ يصالح ذاته وينطلق من مكونات حضارته ولا ضرر أنْ يأخذ من الآخر ما يفيده فلا يكون تابعاً مقلداً وإنّما مستفيداً مجدداً.

5.الهوامش:

[1] الآثار الإيجابية للترجمة: على بن إبراهيم النملة، شبكة الألوكة:

www.alukah.net/culture/0118646 , 28/01/2023.

[2] بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ج2 ص280.

[3] المرجع نفسه، ص271 .

[4] بحوث ودراسات في اللّسانيات العربيّة، عبد الرحمن الحاج صالح، ج1، ص12

[5] المرجع نفسه، ص12 .

[6] بحوث ودراسات في علوم اللسان، عبد الرحمن الحاج صالح، ص178 .

[7] مقال بعنوان زكي الأرسوزي واللّغة العربية ل: عبد الحميد الحسن، ص133

[8] المرجع نفسه، ص133.

[9] المرجع نفسه، ص138

[10] بحوث ودراسات في اللّسانيات العامة، الحاج صالح، ج1، ص12

[11] زكي الأرسوزي واللّغة العربية ل: عبد الحميد الحسن، ص134

[12] ينظر: المرجع نفسه، ص134 .

[13] بحوث ودراسات في علوم اللسان، عبد الرحمن الحاج صالح، ج2، ص267 .

[14] تحديث أصول البحث في التراث اللُّغوي العلمي العربي، عبد الرحمن الحاج صالح، مجلة المجمع الجزائري للغة العربيّة، ع4، 2006، ص10 .

[15] المرجع نفسه، ص10.

[16] تكوين العقل العربي، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط10، ص5 .

[17] المرجع نفسه، ص5.

[18] المرجع نفسه، ص5.

[19] المرجع نفسه، ص5.

[20] المرجع نفسه، ص6.

[21] ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة ، الكتاب اللّبناني للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1979، ص6.

[22] تكوين العقل العربي، محمد عابد الجابري، ص6.

[23] المرجع نفسه، ص6.

[24] الذخيرة العربية: مشروع علمي حضاري، بشير إبرير، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، ع 4، ديسمبر 2006، ص46.

6. قائمة المراجع:

1. الآثار الإيجابية للترجمة: على بن إبراهيم النملة، شبكة الألوكة

www.alukah.net/culture/0118646 , 28/01/2023.

2. بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، موفم للنشر، الجزائر، 2007
3. زكي الأرسوزي واللّغة العربية ل: عبد الحميد الحسن
4. تحديث أصول البحث في التراث اللُّغوي العلمي العربي، عبد الرحمن الحاج صالح، مجلة المجمع الجزائري للغة العربيّة، ع4، 2006
5. تكوين العقل العربي، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط10
6. الرحمن بن خلدون، المقدمة ، الكتاب اللّبناني للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1979
7. الذخيرة العربية: مشروع علمي حضاري، بشير إبرير، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، ع 4، ديسمبر 2006.